

ملاحظات حول استخدام الاستمارة
والملاحظة كأداتين لجمع البيانات
في التدريبات قصيرة المدة في البحث السوسولوجي

د / بلقاسم سلاطينية

قسم علم الاجتماع

كلية الآداب و العلوم الاجتماعية

جامعة محمد خيضر بسكرة

Résumé :

Nous comparons dans cet article deux instruments de collecte de données ;

Le questionnaire et l'observation , en essayant de montrer les aspects positifs et négatifs de l'un et l'autre .

ملخص :

يهدف هذا المقال إلى المقارنة بين أداتين هامتين من أدوات جمع البيانات في العلوم الاجتماعية، وهما الاستمارة والملاحظة، وهذا من الناحيتين البنائية والوظيفية لهما. موضحا عيوب الأولى ومحاسنها ومجالات استخدام الثانية ومآثرها .

تتمحور كلمتي هذه المقدمة إلى اليوم الدراسي عن مناهج البحث في العلوم التربوية في معهد علم النفس بجامعة قسنطينة حول بعض الملاحظات والدروس التي أمكن استخلاصها من التجربة الميدانية التي اكتسبتها من عملي في معهد علم الاجتماع بنفس الجامعة، وهذا بهدف إلقاء الضوء على بعض الأخطاء التي يمكنكم تفاديها مستقبلاً إن اقتنعت بما سأقدمه .

تمهيد منهجي:

قبل التعرض إلى الموضوع الأساسي لهذه الورقة يبدو نافعا الوقوف ولو قليلا عند المنهجية الكامنة وراء هذه الكلمة - سأحاول باختصار شديد تلخيص بعض الملاحظات المنهجية التي أراها ضرورية لمثل هذه التدريبات قصيرة المدة، لطلاب في السنة الثالثة في العلوم الاجتماعية. ما زال البعض منهم لا يفرق بين مجالات استخدام كل من الملاحظة والاستمارة وفي أي الظروف، ولا بين المنهج كتنقية وفلسفة المنهج في علم الاجتماع.

إن فآول سؤال سأطرحه هو "ما الهدف من هذا التدخل؟".

وللإجابة أقول سأحاول أن أفارن ولو بشكل سطحي مبسط بين أداتين لجمع البيانات، أبين عيوب الأولى لمثل هذه التدريبات وإيجابيات وظروف إعداد الثانية لها.

قبل هذا أريد أن أعرف ما إذا كنتم قد تساءلتم عن:

- 1- موضوع الدراسة التي سنقوم بها؟.
- 2- الهدف المرجو منها؟.
- 3- هل للإطلاع عن سير وتنظيم المؤسسات التي ستزورها فقط؟.
- 4- هل لمعرفة مختلف مصالحتها؟ عدد مكاتبتها؟.
- 5- هل لمعرفة دور المؤسسة التي ستزورها خدمة لصالح المجتمع؟.
- 6- هل؟ هل؟... الخ.
- 7- ما هو المنهج الذي سنعتمده لدراسة الموضوع؟.
- 8- ما هي الأدوات التي سنجمع بها المعلومات، ومن هذا الميدان؟.

أقول أن الإطلاع ومعرفة البعض من هذه المعلومات والإجابة عن البعض من هذه الأسئلة لا يعني باحث الاجتماع فقط الذي يتطلب منه عند الخروج إلى الميدان، أن ينزل بموضوع (مشكلة بحث) محددة: بدقة، ووضوح، واختصار)، والبحث عن طريق الملاحظة أولاً عن النواحي البنائية- الوظيفية للعمليات الاجتماعية التي تؤدها المؤسسة مجال الدراسة.

إن يجب أن نحقق من هذا التدريب هدفين أساسيين هما:

- 1- تطبيق الأداة التي سنستخدمها لجمع المعلومات تطبيقاً علمياً سليماً.
- 2- معرفة الوظيفة الاجتماعية التي تؤدها المؤسسة مجال الدراسة خدمة لصالح المجتمع.

لذلك علينا أن نقوم بما يلي:

- 1- نسجل بسرعة كل المعلومات التي نعتقد أن لها علاقة بموضوع الدراسة : " ترتبط الملاحظة في جزء منها بالاكشاف و يمكن أن نسجلها في مسار عرض الحال أو الاكتشافات والسفر ، و يمكن أن نقرّبها كذلك من تحقيق مبعوث خاص أو شهادة هذا الأخير المتواجد في نفس المكان ، و الذي شاهد و استمع واشترك . " (1) .
- 2- نلاحظ ما نعتقد أنه جدير بالملاحظة.
- 3- نتوخى الدقة في ملاحظة البيانات التي تمس ما نريد معرفته عن موضوع دراستنا.
- 4- الانتباه والتركيز أكثر لأن المدة غير كافية والوقت لا يسمح بالعودة إلى الميدان للتأكد من الشك في معلومة معينة.

بعد هذا سأحاول الآن التعرض باختصار لبعض الملاحظات حول الاستمارة. "هي مجموعة من المؤشرات موجهة للكشف عن أبعاد المفهوم موضوع الدراسة بواسطة استقصاء أمبريقي: البحث الميداني في مجتمع محدد : " للاستمارة وظيفة رئيسية

تمنح للبحث توسعا أكبر و التحقق إحصائيا إلى أي مدى يمكن تعميم المعلومات والفرضيات المعدة مسبقا". (2)

وتحتوي عادة على ثلاثة أنواع من المعلومات:

- 1- أسئلة للتعريف بالمبحوث (الحالة المدنية، معلومات عامة).
 - 2- أسئلة عن الاتجاهات بمعنى السلوكيات.
 - 3- أسئلة عن الرأي.
- أي باختصار: من؟ ماذا يفعل؟ كيف يفكر؟

Qui est- ce ? . Que fait- il ? . Que pense t'-il ? .

وأبسط إجاباتها: الاختيارية (*L'alternative*) التي تمنح اختياريين للمبحوث: نعم - لا. ثم ما يتفرع عن ذلك من تفصيلات: مثل: الاحتمالية، المغلقة، المفتوحة، نصف المفتوحة... الخ. لا نتعرض لها هنا في هذه الكلمة.

وتوزع الاستمارة في الغالب:

- 1- التوزيع المباشر للاستمارة عن طريق باحث أو مكلف بالتوزيع في المنازل.
- 2- التوزيع عن طريق البريد.
- 3- عن طريق المقابلة.

وهذا العمل يتطلب وقتا أطول من أسبوع (وهنا تبدو الملاحظة أيسر في الاستخدام في فترة قصيرة للتدريب).

وتعتبر الاستمارة من بين الأدوات الأكثر شيوعا واستعمالا لجمع المعلومات في مؤسساتنا، وقد كان التركيز عليها واستعمالها بشكل واسع خلال السبعينيات، عندما كانت دائرة علم الاجتماع تابعة لمعهد العلوم الاجتماعية وفيها تخصصان فقط: علم الاجتماع الصناعي وعلم الاجتماع الريفي-الحضري، إذا استعملها طلاب هذين التخصصين كأداة وحيدة للحصول على المعلومات بسهولة إعدادها من جهة واستجابة المبحوثين واستعداداتهم النفسية آنذاك للإجابة عن كل الأسئلة التي تطرح من قبل الطلبة لأنها حسب اعتقادهم ستحل مشاكلهم في ذلك الوقت.

وقد كان الميدان منحصرا في المؤسسات الصناعية (المصانع)، التي تستقبل الطلبة ليس خدمة للعلم والمعرفة بل خدمة للاتجاه السياسي السائد آنذاك في البلاد، ولمحافظة مسؤولي هذه المؤسسات على مراكزهم.

أما ميدان التخصص ريفي-حضري فقد كانت تعاونيات الثورة الزراعية ودراسة مشاكل المتعاونين والمستفيدين من الثورة الزراعية هي أخصب ميدان لجمع المعلومات، وحل المشاكل والتناقضات بإدماج الطلبة في التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعيشها البلاد خلال تلك الفترة.

ومنذ ذلك الحين (سنوات 74، 75، 76، 77)، وصارت عادة وتقليدا وضرورة علمية احتواء كل المذكرات على جداول بالاعتماد على الاستمارة كأداة وحيدة وفريدة في جمع المعلومات من الميدان، وإن تمت الإشارة إلى الأدوات الأخرى، فإن استعمالها محتشم وبشكل غير واضح : " إن تبني التصور الطبيعي في دراسة المجتمع محدود الأثر و القيمة ، و ترتبط تلك الحدود بالطبيعة المميزة للأبنية الاجتماعية التي تكون محددة بالنشاطات و بتصورات الفاعلين وكذلك بعاملي المكان والزمان. " (3) .

أما ملاحظاتي حولها ستكون مختصرة جدا، وتتمثل في خمس نقاط وهي عبارة (سجلتها دون تركيز كبير ولا تفكير معتمد مدروس).

1- إعداد الاستمارة في أروقة الجامعة وبأي كيفية كانت خطأ منهجي فادح، لأن دقة وعلمية المعلومات التي سنجنيها عن طريقها تتوقف على دقة أسئلتها وضبطها بشكل علمي محكم.

2- احتوائها على ما يدور في ذهن الباحث من أسئلة خطأ منهجي آخر يؤدي في الغالب إلى الحصول على معلومات عن صحة المبحوث، عدد أبنائه، حالة الطقس، عمله السابق، ومستواه التعليمي، أكثر من الحصول على معلومات تتعلق وتخدم مباشرة الموضوع (المشكلة) المراد دراسته.

3- من جهة أخرى فإن الاستمارة في الميدان صارت لا جدوى لها ولا فعاليتها لمحتواها لأنها لم تعد تشفي فضول المبحوث أو إرادته في الإطلاع على محتواها، لأنه اطلع على الكثير منها وخاصة من طلبة وباحثين في علم الاجتماع وعلم النفس الصناعي : " و يبدو غريبا بالنسبة للمتزمين من الباحثين السوسيولوجيين بالإعداد المسبق

والتحضير القبلي للاستمارة ، فقد بنى بيار بورديو P . Bourdieu ، أفكاره في كتاب له بعنوان (بؤس العالم la misère du monde) على طريقة جديدة يعتقد أنها الأنجح في الأبحاث السوسولوجية ، ففي المقابلات يفضل الاعتماد على الحوار العادي و ذلك بخرق كل القواعد العلمية العادية مثل البناء الأولي للموضوع والاستمارة و الفروض و حياد الباحث أو ضرورة تحليل المضمون". (4)
ولذلك فإن وزعتها -الآن- سوف تملأ في المقهى أو المطعم أو الحافلة، وإن أعادها لك المبحوث، فلن تتجاوز الإجابة عن أسئلتها أكثر من 30% وبشكل غير دقيق.
أما إذا تم ملؤها من قبل الباحث نفسه فيكون ذلك بسرعة ولا يعطى له الوقت الكافي لشرح أسئلته للمبحوث، لأن العامل قد تخطى عن عمله أثناء فترة المحاوره مع الباحث وهذا يعرقل سير العملية الإنتاجية في نظر مسؤولي المؤسسة، ثم يبقى معك مسؤول (رئيس الفرقة) ليستمع إلى نوعية الأسئلة التي تطرحها على العامل المبحوث (وأحذر السؤال عن علاقة العامل بالإدارة).

وهذا ما يضايقك ويحجم المبحوث عن الإجابة، وتصور بالتالي نوعية المعلومات التي تجنى وقيمتها العلمية.

4- إن ازدياد استخدام هذه الأداة يجب أن توأكبه في الواقع إصلاحات وتحسينات وتعديلات لكيفية إعدادها وبنائها قبل النزول بها إلى الميدان من طرف أساتذة المعهد (علم الاجتماع خاصة).

هذا لم يتم، ولا مرة واحدة لمراجعة هذه المسألة، ولو حدث ذلك لتمكن أخصائيو المنهجية وأساتذة الإشراف من ربح الكثير من الوقت في تحضير استمارة نموذجية تحتوي على الخطوط العريضة والمحاور الأساسية عند دراسة أي موضوع في علم الاجتماع : " إن توخي الحذر عند بناء الأسئلة و تحليل المحتوى ضروري لأن المادة المستقاة من الميدان و هي التي تبنى عليها الدراسة هي مادة شفوية ، فبالإضافة إلى الحدود المعروفة يعترضنا مشكل المعنى ، فهل لغة الباحث و معانيها تتناسب و تتوافق مع لغة المبحوث ، و هذا ما يفرض علينا عند تحليل محتوى الأجوبة مراعاة ذلك " (5).

5- يتنافى جمع المعلومات بواسطة الاستمارة وروح البحث العلمي إذ أنها صارت عبارة عن عملية تجميع آلية لمعلومات ميدانية وتفرغها في جداول، غالبا ما تكون متناقضة

وخاطئة، ولا معنى لها، لأن الطالب "يفلسف" في بنائها - ويتناسى الطريقة العلمية الصحيحة لتركيب الجداول (بسيطة ومركبة)، وبالتالي فإن هذه المعلومات غير الصحيحة تصبح عائقاً أشد خطورة أمام حل مشكلة البحث: "تخص مواصفات الوضوح الدقة و الاختصار و ذلك عند تشكيل تساؤل مبدئي بصورة خاصة". (6) ولعل قول الباحث الشهير "كلود برنار" (1878-1913) « Physiologiste » في هذا المضمار أحسن دليل على ما أقول:

"إن ما نعرفه بالفعل وليس ما نجهله هو أكبر عائق لدراستنا" (الاستخفاف بما نعرفه، لا نركز فيه، لا نعطيه أهمية، لا ندقق لأن ما نعرفه قد يؤدي إلى معلومات خاطئة) والعكس مع ما نجهله إذ يستوجب التدقيق فيه والبحث عنه بجدية واهتمام وشغف وهذا ما يؤدي إلى معرفة صحيحة وسليمة.

إن الهدف المثالي المشترك عند كل رجال العلم هو استعمال مناهج وتقنيات تتميز بأكبر قدر من الموضوعية - وكلهم يأملون في الملاحظة، التسجيل والتفسير للحوادث بشكل يمكن الدارسين (الملاحظين) الآخرين من التحقق من اكتشافاتهم بكل يسر وسهولة. هذا ما يمكن قوله عن الاستمارة - أما عن الملاحظة التي تعرف بأنها "هي معايشة الموضوع المراد دراسته، ومشاهدته عن قرب والاستعانة بالصور والعلاقات الموجودة بين الأفراد والجماعات الإنسانية محل الدراسة.

كما نعرف بأنها عبارة عن معاينة للمواضيع السلوكية والحصول على المعلومات عنها في المواقف الطبيعية"، ومن ميزاتها:

- 1- الإطلاع والتفحص المباشر للظاهرة محل الدراسة.
- 2- تسجيل السلوك فور حدوثه.
- 3- تمكن الباحث من التعرف على معلومات جديدة لم تكن في حسبانته عند نزوله إلى الميدان.

4- هي أسلوب مكمل -في غالب الأحيان- للمقابلة أو الاستمارة. أغلب تقنيات جمع البيانات يمكن استخدامها إما بشكل كفي أو بشكل كمي.

1. الملاحظة الكيفية تستعمل:

أ. لدراسة ظاهرة فريدة.

- ب. لدراسة ظواهر معقدة ومركبة.
 ج. لتحضير ملاحظة كمية: البحث عن الفروض بدراسة ترتبط بوجود أو غياب خاصية ما (وليس حسب درجة ظهورها)، التي تحتل كل مظاهر حالة ما.

2. الملاحظة الكمية تستعمل:

- أ- للحصول على معلومات دقيقة حول آراء ذاتية (إحصائيات وأرقام حول هذه الآراء).
 ب- لعقد مقارنة بين حالات تختلف ببعض الصفات الموضوعية.
 ج- في كل الحالات التي يمكن فيها التعميم الإحصائي (استطلاع الرأي العام، تحليل العلاقات... الخ)

أما لبناء ملاحظة علمية يجب مراعاة ست مسائل أساسية:

- 1- ما هو السلوك الذي نختاره إذا أردنا الحصول على المعلومة التي نحتاجها؟
- 2- في أي ظروف تتم الملاحظات؟ ما هو بناء الوضعية المراد ملاحظتها؟
- 3- كيف نتأكد من أننا نلاحظ حقيقة عملية تمثل وحدة وظيفية؟
- 4- هل حاولنا تلخيص ما لاحظناه بشكل كمي؟. هل يمكن إعداد نتيجة؟ وما المعايير الكمية لهذه النتيجة؟.
- 5- ما النوعية، وما الدلالة العلمية للظاهرة التي كانت موضوع الملاحظة؟. وما قيمتها؟.
- 6- أخيراً، إلى أي مدى تكون الملاحظات مستقرة؟. هل نتحصل على نفس النتائج في نفس الظروف الواضحة؟. أي هل القياسات التي استعملناها كانت صادقة؟.

هذا باختصار ما أمكنني تسجيله عن الأداتين، فإني أنصح باستخدام الملاحظة في الميدان وتسجيل المعلومات عن الموضوع المراد دراسته وتحليلها عند العودة من الميدان لأفضل من جني معلومات عن طريق استمارة تعد لفترة غير مناسبة وبشكل ارتجالي وسريع.

الهوامش:

- (1) Jean Claude Combessie : la méthode en sociologie ,Paris, éditions la découverte , 1996 . P . 14 .
- (2) Idem .P 33 . (l'entretien semi – directif) .
- (3) عنصر العياشي : حدود التصور الطبيعي ، دراسات عربية عدد 5 ، 6 – السنة 33 مارس / أبريل 1997، بيروت دار الطليعة . ص . ص . 116 – 110 .
- (4) Nonna Mayer : l'entretien selon Pierre Bourdieu . revue française de sociologie , Paris , octobre / décembre . 1995 . p . 335 .
- (5) J . P . Pourtois et H . Desmet : épistémologie et instrumentation en sciences humaines . Liège – Bruxelles . 1988 – P . 167 .
- (6) Raymond Quiry , Luc Van Campenhoudt : manuel de recherche en sciences sociales . ed / Dunod , Paris , 1995 . P . 25 .